

الكولونيالية وما بعدها

The post colonial period

دكتور / بوخالف إبراهيم

معهد اللغة والأدب العربي - المركز الجامعي - عبد الله مرسل - تيبازة

boukhalfa.brahim@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/10/09 تاريخ القبول: 2021/04/11 تاريخ النشر: 2021/09/15

ملخص:

إن أسوأ ما تعرضت له البشرية خلال تاريخها الطويل هو ظاهرة الاستعمار. فالاستحواذ بالقوة على أرض الآخرين، وسلب خيراتها وتحويلها إلى البلد الأصل، هو أسوأ ما يسلط على الإنسان من ظلم وعدوان لا يمكن تبريره بأي حال من الأحوال. والبلد المستعمر يدرك هذه الحقيقة، ولذلك يسعى إلى طمسها بكل أدوات الإقناع والمخادعة، وتزييف الحقائق. وينهض البلد المستعمر لدفع هذا العدوان عن نفسه بكل أشكال المقاومة المتاحة، على المستوى الثقافي، كما على مستوى الفعل العسكري التحرري. من أجل هذا نشأت الرواية ما بعد الكولونيالية لتقويض سردية الاستعمار وبيان زيفها، إذ أنها تستند إلى إيديولوجيا الهيمنة والاستحواذ.

الكلمات المفتاحية: الكولونيالية؛ النقد ما بعد الكولونيالي؛ السرد؛ الهيمنة؛ الامبريالية

Abstract:

the worst thing that happened to humanity during its long history is the phenomenon of colonialism, the acquisition by force of the land of others and the looking of there resources and transforming them into the original land :allthis is the worst that can be imposed on man as aggression and transgression that can't be justified by any means. The colonized country stands to repelthis agression by all forms of available resistance at the cultural level as well as the military level. For this the short story came to life after colonialism to weaken the colonial narrative and to show it's falsification as it is based on the ideology of Monopoly and acquisition

key words: Colonialism, postcolonial Criticism, Narration, Hegemony, Imperialism

مقدمة عامة:

مع اشتداد الرغبة المحمومة لدى الغرب الحديث في التوسع خارج الحدود، والاستيلاء على مزيد من المناطق الجغرافية الغنية بثرواتها، اشتدت الحاجة إلى خطاب ثقافي يسوغ هذه الحركة باتجاه الخارج، وضمها إلى المركز من أجل معالجة أزمات الغرب الاقتصادية والاجتماعية. وهكذا اهتدى مفكرو الامبراطورية إلى مشروع إنساني منبثق عن الأنوار، يدعي أنه ملزم أخلاقياً بتنوير البشرية وإخراجها من طور الطبيعة إلى طور الثقافة، وقيادتها إلى الحداثة الأوروبية الصاعدة من أجل خير البشرية ورفاهيتها.

وقد تكفل الخطاب الروائي والرحلي والخطاب الاستشراقي بهذه المهمة التي تتمثل في تلميع صورة الاستعمار الغربي، وإحاطته بهالة من القداسة الروحية المنبثقة عن المسيحية، من أجل تورية الرغبة الحقيقية في الهيمنة على مقدرات الشعوب غير الغربية، والظهور بمظهر الرجل النبيل الذي قديم لتخليص المعذبين في الأرض وإنقاذهم من شقاوتهم التي سببها لهم الجهل والبربرية.

وقد شهدت ما بعد الحداثة سقوط السرديات الكبرى التي أسست العمق الإيديولوجي للمركزية الغربية، وانبثق عن هذا السقوط تيار نقدي من رحم الثقافة الغربية، سعى النقد ما بعد الكولونيالي، وكان إدوارد سعيد وهومي بهابا وسبيفاك من مؤسسي هذا النقد الذي تمكن من نقد الخطابات الكولونيالية وتقويضها من الداخل، وتعرية النوايا المزيفة للخطابات الغربية التي تُسوَّق للاستعمار وتداري رغبتها في الهيمنة بهالة إنسانية هشة يصعب الدفاع عنها.

يسعى هذا المقال إلى بيان الآليات الحفرية التي يعتمد عليها النقد ما بعد الكولونيالي للكشف عن إيديولوجيا الهيمنة والضم، ونرفق تحليلنا النظري بنماذج تفكيكية من منظور ما بعد كولونياليين لبيان بلاغة خطاباتهم النقدية وجدواها المعرفية والجمالية.

مع بداية النهضة الغربية وانطلاق الانبعاث الحضاري الذي تغذيه العلوم الحديثة الزاحفة، تشكلت الشعور الجارف بالتمرد على الكنيسة وإكراهاتها التي تمنع العقل من الانفلات بحثاً عن الحقيقة، وظهر فلاسفة غربيون يجاهرون بالعداء لسلطة الكنيسة ويقوضون قناعاتها حول الكون والمصير البشري بما يكشف عن زيف خطاباتها وشعاراتها التي تداري بها مساعيها التبشيرية حول العالم غير الغربي، وإنه لطالما كان الخطاب التبشيري مسانداً لحركات الاستعمار الغربي. وتخطر بالبال في هذا السياق أن الحملات الإسبانية على القارة الأمريكية في القرن الخامس عشر كانت تتوارى وراء الرغبة في نشر الديانة المسيحية. لقد كان قادة الحملات العسكرية يلتمسون من

الملك الإسباني التمويل المادي للمتطوعين من أجل نشر "رسالة الرب" وهداية "البرابرة" و"الهمجيين" و"الضالين".

كما أن الحملات العسكرية في شمال إفريقيا كانت مرفوقة ببعثات تبشيرية ناشطة، وتتدرّج بالأعمال الخيرية ذات الطابع الإنساني من أجل إقناع الأصلايين بأفضلية الديانة المسيحية على الديانات المحلية. فهم يعتبرونها أرقى التظاهرات الثقافية على الإطلاق، رغم أن المسيح عليه السلام لم يُبعث في أوروبا، وإنما بُعث في الشرف العربي، لأعراق سامية. نروم في هذا المقال الخوض في متاهات الخطاب الكولونيالي الذي نشأ للدفاع عن الوجود الغربي خارج حدوده، وامتلاك الأرض، واستعباد البشر، بدعوى تحضيرهم.

النظام الكولونيالي:

المفهوم وحيثيات التشكل:

يرتبط هذا المصطلح بالتوسّع الأوروبي خلال عصور النهضة المبكرة، حيثُ شعرت أوروبا برغبة محمومة في اكتشاف المناطق الجغرافية النائية والمتاخمة لحدودها، من أجل معرفة تلك الشعوب التي تختلف عنها في نمط العيش وطرائق التفكير. وقد ترافقت هذه الرغبة وتغذّت وتنامت مع روح الأنوار التي كانت تسري في دماء الغربيين الذين كان يكابدون شظف العيش وتبعات الحروب البينية. لقد كان حلم الإثراء يراودهم كلما دُعوا إلى مغامرة استعمارية لأراضي الغير البكر. فقد كانت سبل عيشهم حسيّة ومعسرة، وكانت الأمراض والأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعاً.

يجادل بيل أشكروفت بأن مصطلح "الكولونيالية" على علاقة وثيقة بالاستعمار الاستيطاني وما يتبعه من هيمنة ثقافية. فهو ذو أهمية "في تحديد الشكل المحدّد للاستغلال الثقافي الذي تنامي بالتزامن مع التوسّع الأوروبي"¹. وقد عدّ الاستعمار شكلاً من أشكال المثاقفة رغم علاقات الهيمنة والسيطرة التي كانت الثقافة الغربية تمارسها على غيرها من الثقافات الهامشية. الكولونيالية هي إذاً "هي زرع المستوطنات في إقليم ناء"². يركّز سعيد في منظوره إذاً على عنصر الأرض، بالنسبة للكولونيالية، بينما يقع التركيز على الجانب الثقافي بخصوص مصطلح "الامبريالية". إنّ كلمة "استعماري" (كولونيالي) حسب قاموس أكسفورد للغة الانجليزية قد أُشتقت من كلمة "كولونيا" التي تعني مزرعة أو مستعمرة، أي أرضاً فارغة قد وقع إعمارها من طرف عناصر وافدة من قومية أجنبية. "إنهم مجموعة من الناس يستقرون في موقع جديد ويشكّلون جماعة خاضعة لدولتها الأمّ أو مرتبطة بها. وهكذا تتشكّل الجماعة وتتألف من المستوطنين الأساسيين وأحفادهم ووارثهم طالما أنّ الرابطة مع الدولة مستمرة"³. واللافت في هذا التعريف هو إسقاط الأصلايين من أي حساب، من قبّل الاستيطان ومن بعده، وبالتالي فإن الصدام بين بين طرفي العملية الكولونيالية (المستعمر والمستعمّر) قد تمّ طمسه وتغييبه تجاهلاً لما يمكن أن يترتب عن فعل الاستيطان من

مقاومة، أو حتى ذوبان، ولطالما يتحدث الغرب عن المستعمرين على أساس غيابهم، في إشارة بليغة إلى إقصائهم من المسار التاريخي للحضارة الإنسانية؛ وأكثر من ذلك فإنه غالباً ما يتم حرمانهم من تمثيل أنفسهم، فتمنع سرديات من أن تتشكل، وتقمع قوميات وثقافات من رحم الأرض المستعمرة، ومن تاريخ المستعمرين.

أما الامبريالية التي كثيراً ما تستعمل كمترادف للكولونيالية، فإن إدوارد سعيد يذهب إلى أنها "تعني الممارسة والنظرية والتوجهات الخاصة بمركز حواضري متسيد يحكم إقليمًا نائيًا"⁴. ومن هنا فإن النظام الامبريالي لا يشترط الحضور في عين المكان، وإنما يحكم عن بعد. بينما الاستعمار، وكما يوحي اسمه يقتضي إعمار الأرض وإقصاء سكانها الأصليين، أو إبادتهم كما حصل مع سكان أمريكا الأصليين. "إن عملية تشكيل جماعة في الأرض الجديدة كان معناه بالضرورة إنهاء تشكيل أو إعادة تشكيل الجماعات التي تواجدت هناك من قبل وشمل مجالا واسعا من الممارسات من ضمنها التجارة والسلب، والمفاوضات والحرب والإبادة الجماعية والاسترقاق والثورات"⁵.

لما أدرك الاستعمار الاستيطاني أن وجوده في الأراضي التي صادرها من خارج حدوده أصبح مكلفاً من نواحي متعددة، وأصبح يواجه مقاومة شعبية عنيفة ويواجه معارضة سياسية من داخل حواضره، فضّل أن يفكك قواعده، ويرسي تفاهمات واتفاقيات تؤمن له مصالحه في مستعمراته القديمة، وسرعان ما تحولت هذه التفاهمات -من خلال إعادة قراءة مأكرة- إلى وصاية على الطبقة السياسية الحاكمة لتحويلها إلى وكلاء للاستعمار، مقابل المحافظة على امتيازاتهم وتأييد وجودهم على رأس الحكم، وهو الأمر الذي يحصل اليوم في الدول العربية، بغض النظر عن طبيعة نظام الحكم والمواولة.

وهكذا فإن كل الأنظمة التي تقع تحت طائلة الامبريالية الغربية والتي أضحت عالمية من حيث الشمول والتأثير الهائل، لا تتمتع بقرار سياسي سيادي، ولا تستفيد من ثرواتها الاقتصادية إلاّ بقدر ما يسمح به الميتروبول، ومن هنا، فإن الامبريالية تعني في الاستعمال الإنجليزي "أمراً وسلطة أعلى. ويعرف قاموس أكسفورد للغة الانجليزية كلمة <<امبريال>> على أنها ببساطة ذات صلة بالامبراطورية، والامبراطورية على أنها حكم امبراطور وخاصة عندما يكون استبدادياً واعتباطياً"⁶. إن هذا التعريف يؤكد على معنى القوة والتحكم في الآخر عن بعد، إنها علاقة قهر وإذلال لدول الهامش التي كانت ذات يوم مستعمرة، ولم تحصل إلاّ على استقلال صوري، لا يرقى إلى مستوى السيادة.

يربط المفكر الماركسي (لينين) معنى الامبريالية بمرحلة معينة من تطور الرأسمالية؛ وهو يجادل بأن نمو الرأسمالية المالية والصناعة في البلدان الغربية قد وقّر فائضاً هائلاً من رأس المال، وهذا المال كان من المتعذر استثماره في المركز لشح اليد العاملة وغلائها ولندره المواد الأولية الممول

الأساسي للمصانع الغربية؛ بينما المستعمرات كانت تفتقر إلى المال والتكنولوجيا، وتزخر بأيدي عاملة رخيصة الثمن." ولذلك كان على رأس المال الخروج وإخضاع البلدان غير الصناعية للحفاظ على نموه⁷. وهكذا توقع لينين أن يبتلع رأس المال الغربي العالم في بضع سنين، وسيحوّله إلى تابع يجتزّ فضلات الغرب، ويعيش على فتاته. ولذلك عمد هذا الغرب إلى تكبيل الحكومات العالمية بالديون وإغرائها بالحدّات ورفاهية العيش. يوهّم قادة الغرب عملاءهم في الهوامش أنهم ليسوا مثل الأهالي، ولا هم من طينتهم، وإنهم يجب أن يعاملوا شعوبهم كالقطيع الذي يقاد إلى المراعي، ويعاد إلى حضائره كلما جنّ الليل.

إن النظام الذي ترتّب على هذه العلاقات من القوة والسيطرة بين دول صناعية قويّة ودول ما قبل رأسمالية ضعيفة وهشة في بنائها الاجتماعي وتابعة في نظامها الاقتصادي، إنّ هذا النظام هو الذي نطلق عليه "الامبريالية العالمية"، وهي نظام لا يتقبّل الرأي الآخر الذي يسعى لزعزحته عن امتيازاته. ولذلك تعرّض العراق في العشريّة الأخيرة من القرن العشرين للتدمير، وتعرّض الدولة الإيرانية اليوم إلى التحرش الأمريكي بها لمنعها من امتلاك قرارها السياسي والاقتصادي بيديها. ما بعد الكولونيلية:

تفترض البادئة "ما بعد" نتيجة بمعنيين: معنى زمنيًا كالقدوم فيما بعد ومعنى إيديولوجيًا كحلول شخص مكان شخص آخر، أو حركة مكان أخرى. وهذا يقتضي عملية استئصالية ل"ما قبل". غير أن استبداد وتصلّب النظام الاستعماري واستماتته في إذلال آخريه لا يزال فاعلا في العلاقات الدولية. ولهذا فإنه من السّابق لأوانه إعلان استئصال العلاقات الاستعمارية أي علاقات الهيمنة والسيطرة بين الدول التابعة والدول العظمى. إن علاقات الهيمنة يعاد كتابتها في اللاتوازنات المعاصرة بين شعوب العالم المتطور وشعوب العالم الثّالث. إن النظام الكوني الجديد لا يعتمد على الحكم المباشر ولكنه يسمح لبلدان معيّنة باختراق بلدان أخرى من خلال قنوات ثقافية وإيديولوجية وحتى سياسية. لقد جرجرت العولمة العالم كله إلى فضاء مكشوف دون معالم حضارية تمييزية. نحن نعيش أفقا مفتوحا طولا وعرضا، وإنّ الأنظمة المحافظة في طريقها إلى الانهيار، على الطريقة السوفياتية. لقد سقطت الخصوصيات القومية والتابوهات واختفت المقدّسات، وتشظّت الهويّات، وافتقدنا نقطة ارتكاز نسترجع بها أنفاسنا التي فقدناها بفعل الحدّات المظفّرة.

إنّ ما بعد الكولونيلية تسمح بتمديد النظام الكولونيالي وتعيش معه بقدر ما تدّعي تقويض خطاباته، والكشف عن زيفه وسوء نواياه تجاه شعوب المستعمرات القديمة. لم يحدث تفكيك الاستعمار تغييرات راديكالية في المستعمرات القديمة إلّا بصورة انتقائية. فقد بقي وضع الفئات الأقلّوية كالنساء والطبقة العاملة وصغار الفلاحين، وضعا دونيًا. فالاستعمار لم يكن مجرد حدث

وأفد من الخارج، وهو ليس أمراً يحصل بالتواطؤ مع القوى الدّاخلية، إنّهُ نسخة يمكن تكرارها من الدّاخل "بحيث يصبح مصطلح ما بعد الاستعمار مصطلحاً يمكن تطبيقه دون تمييز، بل يظهر مسرباً بالتناقضات والشّروط"⁸. يوجد خيط موصول بين الكولونيالية وما بعدها، والفرق بينهما ليس في الطبيعة ولا هو في درجة الهيمنة، وإنما في طرائقها وأدواتها. بذلك فقط يمكن تفسير الاضطرابات الاجتماعيّة التي تعيشها المجتمعات الواقعة تحت الهيمنة الغربيّة، كما يمكن تفسير الحيرة التي يعيشها مثقفو الهامش الموزعون بين ولاءين بالغين التناقض: الولاء للذّات وثقافتها، والولاء لآخر مستبدّ لا يأبه إلاّ لهموم رعاياه، وعلى حساب مصائر المسحوقين من الملّونين. لم يكن ما بعد الاستعمار دالاً على زوال الاستعمار في الجوهر، ولا هو مجرد تال له. إنّهُ الطعن في الاستعمار وتركاته من قبل أصوات واهنة، لا تكاد تعلو على صوت مصالح الدّول الكبرى، ولا تكاد تلامس وعي الحكومات في دول الهامش البئيس.

الأسس الإيديولوجيّة للنظام الكولونيالي:

لقد افترضنا أنّ الاستعمار هو الاستيلاء بالقوّة على الأرض وثرواتها من أجل إعادة بناء اقتصاديّات أوروبا التي تهدف إلى تقوية الرّأسماليّة الأوروبيّة. "وهذا يسمح لنا أن نفهم الاستعمار الأوروبي، ليس على أنّه دافع غير تاريخي من أجل القهر، بل على أنّه جزء لا يتجزأ من التطور الرّأسمالي"⁹ وهكذا يتحوّل الاستعمار إلى حتميّة تاريخيّة تخدم البشريّة في آخر المطاف، ويغدو المستعمر الأداة التي تحقق أرقى غايات التاريخ الكوني. يميل معظم المفكرين إلى وضع الاستعمار في سياق التطور الطبيعي للرّأسماليّة، إنّها مرحلة استغلاليّة ضروريّة من أجل تطور الإنسانيّة الشّامل. لقد كان التاريخ من وجهة نظر الفكر الماركسي حركة غائيّة تبلغ أوجها بالشيوعيّة. لقد كان الاستعمار ضروريّاً من أجل تطوير الحضارة الإنسانيّة وتنقيتها من كلّ مظاهر التفكير البدائي والسلوكيات الخرافيّة. "إنّ علينا ألا ننسى أنّ هذه التجمّعات القرويّة الشاعريّة مهما بدت مسالمة وهادئة كانت على الدوام القاعدة الصّلبة للاستبداد الشرقي. لقد كانت قيّداً على عقل الإنسان، حبسته في أضيق دائرة ممكنة جاعلة إيّاه أداة الخرافة التي لا تعرف معنى المقاومة، مستبعدة إيّاه في ظلّ القوانين التقليديّة، حارمة إيّاه من كلّ أشكال الجلال والطّاقات التاريخيّة"¹⁰. كان كارل ماركس يتحدّث عن شعوب الهند والتي وصفها بالـ "مسالمة" و "الهادئة" و "الشاعريّة". ولقد كانت هكذا بالفعل، تنعم بالسكون وبالسلام، وتعيش ثقافتها وتصنع تاريخها وفق ما تعتقد أنّه التاريخ القومي الصحيح. غير أنّ الغرب يرفض النظر إلى الثقافات التي تختلف عنه من موقع تلك الثقافات نفسها، ويفضّل تقييمها من منظوره الخاصّ، منكرًا بذلك حقّ الشعوب في الاختلاف الثقافي. يفضي موقف كارل ماركس إلى رفض التسليم بالتنوع الثقافي، ويفضّل الغرب المتمركز على الذّات أن يطرح كل ما لا يتفق مع المعايير التي يحيا بموجها، خارج نطاق الثقافة، فيجعله ضمن

نطاق الطبيعة. يحيلنا ماركس من خلال ذلك الموقف إلى الرسالة التحضيرية التي يجادل بها الخطاب الكولونيالي معارضيته، من أجل تسويق العملية الاستعمارية. لقد كان ماركس-المتعاطف مع الشرط الإنساني-مناصرا للاستعمار ولركزية أوروبا العالمية. فقد كان مؤيدا لاستعمار فرنسا للجزائر، ولاستعمار إنجلترا للهند "كانت إنجلترا إذ أوجدت الشروط اللازمة لتوفر إمكانية قيام مجتمع جديد بصرف النظر عن الجرائم الفظيعة التي قد تكون ارتكبتها، أداة التاريخ اللاواعية لإحداث تلك الثورة".¹¹ يتوجب على إنجلترا القيام بمهمتين مزدوجتين في الهند: مهمة تدميرية، والأخرى تحديثية، تتمثل في إرساء الأسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا، وهي مرحلة ضرورية للعبور إلى التحول النوعي للمجتمع الآسيوي ما قبل الرأسمالي. إنها الرغبة المحمومة في أوربة الكرة الأرضية وتشكيل مجتمع إنساني بلون الرجل الأبيض، وبمعايير الحضارية، ونبد الاختلاف، وطمس الثقافات الأقلوية.

يهدف النظام الكولونيالي "إلى تربية البشرية وفق القواعد الليبرالية الغربية، وتعليمها سبل الدخول السلمي في نظام العالم الواحد والوحيد، وتفاديا لتحويلها إلى قنبلة سكانية موقوتة وحاضنة خصبة لتيارات الراديكالية والأصولية الإثنية"¹². ينظر الغرب إلى الأصليين باعتبارهم أفواجا من البرابرة والبدائيين الذين يستطيعون التحول الفجائي إلى كائنات عدوانية غير قابلة للترويض، ولذلك يجب أن يخضعوا لسلطة القوانين الغربية من أجل إعادة تأهيلهم لتقبل الحداثة الغربية.

كان يُنظر إلى الاستعمار على أنه عملية مثاقفة، تفضي إلى تنوير الشعوب المتخلفة ونقلها من طور الطبيعة إلى طور الثقافة، وكانت المقاومات التي تحصل نتيجة الاقتحام والاستبداد من قبل الرجل الأبيض، ينظر إليها على أنها بربرية وهمجية لا ينفع معها إلا القوة. "لا تستطيع الهند أن تتقدم إلا عبر تحويلها إلى مجتمع غربي، لا يستطيع العالم كله أن يتقدم وينطلق إلى الأمام إلا من خلال اتباع خطوات أوروبا"¹³. تعمل الهوية الكولونيالية عن طريق منطق مانوي قائم على الإقصاء والاستبعاد. بقدر ما يدعي الغرب العطف الإنساني على (البرابرة)، بقدر ما يعمل على إبقائهم على مسافة فلكية منه. إنه يطور باستمرار آليات طرد كلما حاول الشرق الاقتراب منه والتماهي مع قيمه. وكلنا يذكر العراقيل التي أقيمت ضد مشروع انضمام تركيا إلى السوق الأوروبية المشتركة. فالشرق شرق، والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا على حد قول كيبلينغ. لا تزال تركيا تفوح منها رائحة الشرق الكريمة، رغم مرور أنفاس الغرب بالقرب منها.

أدت الأبحاث الفيلولوجية التي طورها كل من دو سامي وأرنست رينان إلى نتائج فلسفية تؤسس لنظرية التفاوت العرقي بين الأجناس البشرية. انطلاقا من أبحاث عن أصل اللغات السامية والهندو-أوروبية-وهي في الأساس أبحاث ذات طبيعة علمية-إلى أن اللغات السامية هي لغات

متخلفة، ولا يمكنها أن تنتج أفكارا عميقة، فبنيتها الصوتية والنحوية لا تزال بدائية، وأكثر من ذلك فإنه لا يمكنها أن تحقق تطورا مذكورا لأنّ تخلقها نابع من تكوينها، وهو يتناسب مع البنية التشريحية لدماغ الملوّنين، إنّها بنية ذات تركيبة بشرية ناقصة مقارنة بدماغ الرجل الأوروبي (الرجل الأبيض) المتطور في تكوينه العقلي والجسمي. "وهكذا فإنّ السّاميين وحدانيّون متعجّلون، لم ينتجوا تراثا أسطوريا أو فنّا أو تجارة، أو حضارة، ووعيم ضيقّ وحادّ الصّلاية، وبشكل عامّ فإنهم يمثّلون (تركيبا دونيا للطبيعة الإنسانيّة)"¹⁴. هذا هو موقف رينان الذي أفضت إليه أبحاثه الفيلولوجية. فهو ينزاح من العلمي إلى الفلسفي بطريقة اعتباطية؛ فيما أن اللغات السامية بسيطة ومتخلفة، فإن العقل السامي يبقى عاجزا عن التطور والتجريد الذي يرتقي به إلى عمق الظواهر الطبيعية والوجودية.

تذكّر الأمم الهندو أوروبية -كما يجادل غوستاف لوبون- بي بين الأعراق العليا؛ فهي التي أثبتت قدرتها على الاختراعات العظيمة في الفنون والعلوم والصناعة، بدءا من العصور اليونانية إلى الرومانية وصولا إلى العصور الحديثة، حيث الثورة الصناعية التي غيرت معالم الحياة الإنسانية الحديثة تغييرا جذريا، وأفلت العقل الإنساني من عقاله، مسخرا الطبيعة لخدمة البشر. تدين الحضارة العالمية اليوم للعرق الهندو-أوروبي الذي اكتشف الكهرباء والذرة وقضى على الأمراض والأوبئة. وفي مجال العلوم الإنسانية نحن مدينون للغرب الحديث التي أنتج تراثا فكريا تعجز عنه الشعوب غير الأوروبية كلّها مجتمعة¹⁵. هكذا يجادل فلاسفة الغرب العنصراويّون جهلا وتجاهلا لإسهامات الشرق في نهضته من حقبة المظلمة.

إنّ النظرية العنصرية الحديثة والمنبثقة عن علم الأعراق والفيلولوجيا، مع ما يلزمها من ممارسات العزل والفصل والتمييز والتصنيف، تتركّز على اختلافات حيوية جوهريّة بين الأعراق. "يقف الدّم والمورثات خلف أشكال التباين في لون البشرة كمضمون حقيقي للاختلاف العرقي. وبالتالي فإنّ الشعوب المضطّدة تعتبر من طينة غير إنسانية"¹⁶. تشير هذه المنظومات المختلفة من الكيانات وهذه النظريات العنصرية الحديثة المنحدرة من الانثروبولوجيا وعلم الأعراق، تشير إلى نوع من الاختلاف الوجودي بين الجماعات البشرية، وإلى خلل ضروري وأبدي وغير قابل للتجاوز. يعتبر الأوروبي نفسه إنسانا متميزا يتمتّع بقوة توسّعية وبارادة تبشيرية تفوقان بكثير المستوى الذي عرفناه عند الإغريقي¹⁷. وإن الردّ على هذه الأطروحات الفلسفية ليس أقله القول بأن الاختلافات بين الأعراق إن هي إلّا فروق تؤسّسها قوى اجتماعية وثقافية. لا توجد أدلة تشريحية على تفوق الرجل الأبيض على غيره من السلالات الإنسانية من حيث الذكاء والقيم النبيلة، التي هي في الأساس ثقافة مكتسبة، لها علاقة حميمة بأنماط العيش والعلاقات الاجتماعية.

ومن ثمّ فإنّ المجادلة بتفوق العنصر الهندو-أوروبي على العرق السامي إن هي إلا دعاية تؤسس لحاجة الساميين للتحضير من قبل الذين حبتهم الطبيعة بالذكاء والنبيل والشجاعة. وهي-ويا للمفارقة-تكشف عن تناقض الفكر العنصري مع أطروحاته. فإذا كان تخلف الشرقيين غير قابل للتجاوز عن طريق التعليم والتدريب، فإن حدوث الاستعمار سيفقد مبرره الأخلاقي. وسيغدو وجودهم خارج حدودهم هو اعتداء على تلك الشعوب، وهي الحقيقة التي يستمدّ منها المستعمرون مسؤوليات كلّ أشكال العنف التي تملّحها حتميات المقاومة.

لنمض أبعد من ذلك بحثاً عن الأسس الإيديولوجية للعقيدة الكولونيلية، ولعلّنا نلتمسها في جوهر الاتجاه الإنساني الذي انبثق عن مشروع الأنوار. ومن أهمّ الانتقادات التي وُجّهت لحقبة التنوير، أنّها وقّرت المبررات الإيديولوجية للاستعمار الأوروبي خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. "بما أنّ الأنوار تقرُّ بوحدة الجنس البشري، فهي تقرّ إذا بكونية القيم. ولما كانت الدّول الأوروبية مقتنعة بأنّها تحملُ قيمة أرقى من القيم السّائدة عند غيرها من الأمم، اعتقدت أنّ من حقّها حمل حضارتها إلى الذين هم أقلّ حظاً منها"¹⁸. ولم يعد أمامها غير استعمار تلك الدول وإلزامها بتبني قيمها الحضارية الأكثر تطوّراً، في مسعى حثيث لأوربة الكرة الأرضية، من خلال إقصاء كلّ ثقافات الهامش، وإنشاء مجتمع إنساني لا يقرّ بمبدأ الاختلاف الثقافي.

إنّ فكرة «السموّ الأوروبي» وفكرة «امتدادية أوروبا» وفكرة «أوروبا مركز العالم» ستفرض نفسها في القرن الثامن عشر، ويدعمها الثقل الحضاري للقارة في تلك الحقبة من الأنوار والنهضات الشاملة. ستصبح أوروبا حسب (ميشال دوفيز) "الوسيط للتقدّم الكوني" والسيد المعطاء الذي ينبغي على العالم أن يستمدّ منه معالم الطريق إلى الخلاص الإنساني. إنّ ما تهدفُ إليه الحضارة الغربية هو "جمع العالم كله في مجتمع كبير وواحد والسيطرة عليه في كل شيء، فوق هذه الأرض وفي البحار والأجواء التي ستصلُ إليها الإنسانية عن طريق التقنية الغربية الحديثة".¹⁹

لقد تقدّمت المركزية الغربية بمشروع سياسي على مستوى العالم "هو مشروع تجانس الإنسانية المستقبلية من خلال تعميم النموذج الغربي، وخطورة هذا المشروع أنّه سوّج منطقاً التوسّع الغربي"²⁰. تستند مقولة تجانس الإنسانية إلى خلفيّة مسيحية، حيث تعتقد الكنيسة -على غرار الأديان السماوية كلها- أنّ البشر يعودون إلى أصل واحد، وأنهم بإمكانهم أن يشكّلوا أمة واحدة، تقف على قدم المساواة أمام قوانين الدولة. وعلى الغرب، الذي يقف في الطليعة من الحضارة الإنسانية أن يتزعّم هذه الأمة الكونية ويقود البشرية إلى خلاصها، لتختفي الحروب والصراعات الإثنية والكراهية بين الأعراق، ولتزول الفوارق الثقافية بين المجتمعات، ويحلّ محلّ كلّ ذلك مجتمع إنساني واحد، ذو بعد واحد وصوت واحد وثقافة نمطية واحدة. إن هذا المسعى الطوباوي يبدو بعيداً عن التحقق لأسباب عديدة. وأولها أنّ الغرب يسعى لوأد التنوع الثقافي بين الشعوب

والأمم، لتسود ثقافته وتهيمن على العقول. وهي الحالة التي يصبح فيها الغرب المسئول الأوحَد عن إنتاج القيم ومعايير الأحكام الأخلاقية، والجمالية. كما أنه يسيطر على مراكز البحث العلمي في كل مجالات المعرفة، ويسمح له ذلك بصناعة مجتمع على مقاسه، يستجيب لمصالح شعوبه، وإقصاء الجماعات الأقلوية التي تشكّل نشازا عن الكلّ وحيادا عن خطّ التطوّر العام.

الجزء التطبيقي:

نقد الخطاب الكولونيالي:

يترجم الخطاب الكولونيالي الرغبة المحمومة في السيطرة، وأنظمة الحجاج التي يستأنس بها العقل الكولونيالي من أجل المحافظة على مكاسبه التاريخية جراء عمليات الاستعمار واسعة النطاق. إنه "متضمّنٌ بدرجة كبيرة في أفكار مركزية القارة الأوروبية، وبالتالي في الافتراضات التي غدت راسمة لزعزعة الحداثة، أي الافتراضات بشأن التاريخ واللغة والأدب والتكنولوجيا. وعلى ذلك، فالخطاب الكولونيالي منظومة من المقولات التي يمكن إطلاقها على المستعمرات والشعوب المستعمرة، وعن القوى المستعمرة، وعن العلاقة بينهما"²¹. إنه رؤية للعالم تتخلّق داخل الدائرة الاستعمارية، ومن منظورها.

يجد قارئ الرواية نفسه إزاء عالمين نقيضين، عالم المسحوقين، والعالم الكولونيالي وبينهما قطيعة وجودية لا تقبل المفاوضة ولا المحاوره، وعلى الحدود فضاءً ثالثٌ يبدأ في التخلّق مع انطلاق رحلة العذاب التي يكابدها الشّاهد على التاريخ الكولونيالي، إنه الفضاء الثالث سليل التقاء حضارتين عدائيتين على أرض واحدة، وخوضهما تجربة المواجهة المكشوفة التي تغذيها الكراهية والازدراء للآخر.

أول العالمين تجلياً في الرواية هو (جنان جاتو)، وهي مساحة الغيتوهات تشكّلت على أطراف مدينة وهران، وإليها لجأت عائلة (جوناس)، لما خسرت أرضها التي تقتات منها في الريف، تقاسيم الفقر والبؤس والمعاناة هي المشهد الفارق لهذا العالم الذي صنعه الاستعمار وشكّل إيقاع حياته الثقيل. "جنان جاتو: مزبلة من الأكواخ والأجمات المتنوعة، الغاصة بالعربيات المفككة والمتسولين والباعة المتجولين والحمّارين المتخاصمين مع بهائمهم وحاملي المياه والمشعوذين والأطفال بأسمال رثة؛ أدغال صلصالية محرقة، معبأة بالغبار والعفن، ملقحة بأسوار المدينة كما الورم الخبيث، في هذه الأماكن العصية على الوصف يتجاوز البؤس جميع التصورات"²². ومن رحم هذا العالم الموغل في البؤس سيتخلّق خطابُ الرفض والثورة، خطاب ما بعد كولونيالي، يمعن في تفكيك سرديّة الاستعمار وكشف تناقضاتها وهشاشة بنيته الفكرية والتي تداري تلفيقها بجمالية مصطنعة، لا تثبّت للنقد والمحاجة.

يقابل هذا العالم المنحط عالمٌ آخر، قرية كولونيالية تنعم بكل مقومات الحداثة والرفاهية المادية. "تترع (ريو صالادو) وسط كرومها وخزانات خمورها -يوجد منها حوالي مائة-، وتترك نفسها تُتَدَوَّق على طريقة النبيذ البلدي، وهي تترقب بين موسمين لقطف العنب نشوة الأيام القادمة الحاملة، برغم شهر جانفي البارد نوعاً ما بسمائه الداكنة، ينبعث من أركانها عطرٌ صيفي دائم"²³ ينسبك تلك الروائح الكريهة التي تتسرب إلى عمق النفس الأدمية كلما مرت بمحاذاة (جنان جاتو).

وبين العالمين يتردّد "جوناس" من حين لآخر بينما وعيه يتشكّل من خلال النظرة المقارنة الثاقبة والمرتبدة على نفسها. فرغم أن عمّه (ماحي) الذي ضمّه إلى بيته، يقاسمه الهوية والتاريخ، إلا أنّه لم يكن يشاركه هواجسه. كان يكابدُ آخريته بصمت متفكّر. إن الوعي بالاضطهاد لدى (جوناس) بدأ يتشكّل انطلاقاً من منطقة حدودية، أطرافية، بين البيت والمدرسة. فالبيت حميمي، موصول بأصل الانتماء وثقافة الأسلاف، والبعد التاريخي المسكوت عنه، والمقموع. والمدرسة هي التاريخ المصرّح به، والمتداول. إنه معلّم الجزائر الفرنسية، وموطن الحداثة والتنوير الذي تعدّ به فرنسا تابعها المتخلّفين. بين المدرسة والبيت الذي يقيم فيه "جوناس" قصة تاريخ تعرّض للانتهاك والتزوير والتلفيق وتغيب الحقائق، واختلاق الأساطير. فإذا كان للمدرسة رواية تسردها فإنّ للبيت أيضاً رواية مضادة. "كان عمي يستقبل ضيوفاً، بعضهم يأتي من بعيد، عربٌ وبربر، يرتدي بعضهم بدلات أوروبية وبعضهم الآخر بدلات أوروبية وبعضهم الآخر ملابس تقليدية. كانوا ناساً مهمّين، متميّزين جداً. يتحدث البعض عن بلد اسمه الجزائر؛ ليس ذلك الذي يُدرّس في المدرسة ولا بلد الأحياء الراقية، وإنّما بلد آخر مسلوبٌ ومستعمر ومقموعٌ، والذي يجترّ غضبه مثل أكل فاسد -جزائر جنان جاتو والانكسارات الجارحة والأراضي المحروقة والعذابات المتكررة والحمّالين"²⁴. يغدو المكان من خلال هذا التوصيف خطاباً مفتوحاً ومقروءاً وبلغاً، يدافع عن فرضياته ويفرض حقائقه ومعطياته. جنان جاتو خطاب المسحوقين وريو صالادو خطاب المستعمر الذي يوزّع الحياة والموت وفق استراتيجيّة غير معلنة، مرصودة لإحكام القبضة وعلاقات الهيمنة والاستفراد بالتمثيل.

انتسب "جوناس" للمدرسة، وأصبح يتردّد عليها من أجل امتلاك ما بخلت به "جنان جاتو". وهناك تلقى أولى منبهات الوعي والأسئلة المحرّمة. كان المعلّم يعفّ التلميذ العربي "عبد القادر" لأنه لم ينجز درسا، وراح يسأل التلاميذ عن سبب إهمال العربي للواجب، فأجاب أحد الفرنسيين: "لأنّ العرب كسالى يا سيّدي". كان المجيب تلميذٌ والمسؤول عنه أيضاً تلميذٌ واحد وهو "عبد القادر". غير أنّ الإجابة كانت معمّمة واعتباطية، وكانت جاهزة، لمثل هذه المواقف الأخيرة. فإذا كان عبد القادر كسولاً فلأنّ العرب كسالى، وإذا كان "موريس" ذكيّاً فإنّ ذلك يعني بالضرورة أنّ كل

الفرنسيين أذكاء. إنَّ مثل هذه الكليشيهات لشديدة الاعتباطية والعشوائية. وقد أُلْفنا سماعها من أفواه أبسط المستشرقين الذين يدَّعون معرفة الشرق والشرقيين، أكثر ممَّا يعرف هؤلاء أنفسهم. إنَّ الكسل من منظور الفكر الاستشراقي صفة الشرق الجوهرية. فالعرب كسالى ولا يعملون ولا يفكرون تفكيراً علمياً، ولا يتقبلون الحداثة الغربية. وعموماً "فالشرقيّون عريقون في الكذب، وهم كسالى وسيئوا الظنّ، وهم في كلّ شيء على طرف نقيض من العرق الانجلو-ساكسوني في وضوحه ومباشرته ونبله"²⁵. كان جواب التلميذ الفرنسي جارحا لوعي "جوناس" وصادما لمشاعره، فهو، وعبد القادر التيميزان الوحيدان من أصول عربية في ذلك القسم، إنهما الأقلّية المحظوظة والمطالبة بالتخلّي عن أصولها، مقابل الامتياز الكولونيالي.

لقد كان الاستعمار في حاجة إلى إدماج أقلّية عربيّة في مؤسساته التعليميّة والعسكريّة من أجل إعدادهم للترويج لقيم الغرب "النبلية"، وتلميع صورة الغرب، باعتباره مخلصاً للمعذّبين في الأرض. فهو مبعوث العناية الإلهيّة للخراف الضالة، يعلمهم سبل التفكير العلمي ونمط العيش الكريم، وقيم العدالة والتسامح. إنه الخطاب الأكثر شيوعاً في المركز والهامش.

لَمَّا حلَّ "جوناس" في ريو سالادو اتّخذ من "إيزابيل" صديقة، وتطورت العلاقة بينهما، بما يُفضي إلى الاقتران، غير أن البنت الفرنسيّة علمت أن جوناس عربيّ، وكان ذلك كافياً لإحداث القطيعة بينهما. صاحبت في وجهه: "لسنا من عالم واحد سيّد "يونس"، وزرقة عينيك غير كافية... إنني من عائلة (روسيليو)، هل نسيت؟ هل تتصوّرني متزوجة مع عربيّ؟ الموت أفضل!"²⁶. إنَّ كلمة "عربي" هي وسمٌ تحقيري يُنعتُ به الأهالي للحطّ من شأنهم. فهي تعني من بين ما تعنيه القذارة والتخلف والهمجيّة. ثمَّ إنّه نعتٌ إقصائي، بمعنى أنه ينفي انتماء هؤلاء العرب إلى الجزائر. فهم قومٌ رخلّ وفدوا من الجزيرة العربية ولا علاقة لهم بهذا الوطن. لقد كان ألبير كامو هو الآخر يمنح هذا الاسم للجزائريين الذين يشكّلون عالمه الروائي في "الغريب" و"الطاعون"، كما يتحدّث الإعلام الغربي اليوم عن الجاليات الشرقيّة المقيمة في المركز باعتبارهم عرباً، وليس باعتبارهم جزائريين أو تونسيين أو مغاربة، إلّا في الحالات النادرة، حيث يستدعي الموقف إلحاق الهوية الوطنيّة بالعربي موضوع الحديث. لا تزال الكليشيهات التي أنتجها الاستشراق وأدب الرّحلات والدراسات الانثروبولوجيّة-سليلة الظاهرة الاستعماريّة-في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومطلع القرن العشرين تغذّي المخيال الرمزي للغرب الحديث.

يقسّم الغرب السلالات البشريّة إلى قسمين: الرجل الأبيض، والمملونين. ويحملُ الرجل الأبيض سمات جسدية تختلف عن تلك التي يحملها المملّون، وإذا كان "يونس" الذي يختفي وراء اسم غربي "جوناس"، ويحمل عينين زرقاوين، ويرافق شاباً فرنسيين، يسعى إلى أن يحظى بالقبول لدى الآخرين، فإنّ ذلك لم يكن كافياً ليكون زوجاً لفتاة فرنسيّة نشأت على احتقار العنصر العربي.

إنّ موقف إيزابيل من "يونس" يحمل طاقة رمزية بالغة الخصوبة. فهو يختزل موقف الغرب من أخريه عموماً، ويجسّد المخيال الرمزي لهم. ورغم الخطاب التحضيري الذي يتذرّع به الغرب لغزو الشعوب العربية والإفريقية، فإنّه يطور آليات طرد واستبعاد لكل غريب وأجنبي. من أجل ذلك نجد قطيعة بين المدينة الكولونيالية والغيثوهات التي أُسكن فيها الأهالي. ونقرأ اللافتات على المرافق الترفهية في المدن الكولونيالية، وقد كُتبت عليها (يمنع دخول العرب). لمّا ضُبط والد "جوناس" سكرانا في حانة فرنسية، ألقى به النادل خارج الحانة قائلاً: "لا تضع قدميك هنا مرة ثانية أمّا المقلّ! هذا ليس مكاناً لأمثالك"²⁷. يشرح هذا السلوك العدائي من قبل النادل بالعنصرية، رغم أن هذا "المقلّ" هو في بلده. لقد حوّل الاستعمار إلى مواطن من الدرجة الثانية، وصيّره إلى أجنبي، يسمّى حياة أصحاب الأرض "الحقيقيين". يقيم الاستعمار حدوداً فاصلة بين عالمه وبين الأراضي المحيطة به مباشرة، وبسبب هذا التقسيم الاعتباري تتحوّل أفواج من البشر إلى آخرين موسومين بالاختلاف، والدونية، ويتحوّل التماس معهم أمراً محظوراً لما يشكّله من خطر أشبه ما يكون بالوباء. لذلك صدّت إيزابيل "يونس" بعنف غير مبرّر لما جاء يطلب صداقتها، وقد تفتّنت إلى أصوله العربية. ولذلك أيضاً طرد والد "يونس" من الحانة وأُهين بشكل مثير للغرابة. فالأجنبي يسمّى حياة الغربيين مثلما تسمم الأعشاب الطفيلية الزرع²⁸. ولذلك يوصي (موريس بارس) بطرد الأجانب من مجال الأروبيين، وألاً يختلطوا بهم، وإذا استعملوهم خدماً، فلا بدّ من عزلهم كما تُعزل الحيوانات في اصطبلات. "تصرّ الإيديولوجيات العنصرية والامبريالية على الاختلاف العرقي"²⁹ الذي يفضي إلى موقعة الآخر طبقياً وثقافياً وإبقائه في غيرة دائمة. إنّ المحافظة على الحدود العرقية والطبقية أمرٌ بالغ الأهمية بالنسبة للنظام الكولونيالي.

كان "أندري -أحد أصدقاء جونيس-، يوظّف في مقاطعته "جلول"، وقد كان يسيء معاملته، ويمعن في إهانته بدعوى "أنّ العرب مثل الأخطبوط، يجب أن تضربه كي يتمدّد"³⁰. في هذه الحالة تتحوّل القسوة والعنف إلى سلوك طبيعي وتأديبي، يهدف إلى ضمان الطاعة والنظام العام، وأمن المستعمرات والحفاظ على مصالح الامبراطورية. إنّ لغة العنف ضرورة كولونيالية توقّرها أجهزة القمع، وتسند لها إيديولوجيا عنصرية لا تحتاج إلى مبررات وجود، فحجّتها في تخلف الآخر وقصوره الوجودي والأبدي. إنّ العالم الكولونيالي ممزّق إلى قسمين: المركز /الهامش، الغرب/الشرق، العالم المتحضر/العالم المتخلف.... وهكذا، يجري إقصاء المستعمرين عن الفضاءات الأوروبية، ليس فقط على أصعدة الحقوق والواجبات، ولكن أيضاً على مستوى الفكر والقيم. فليس من حقّ الأهالي في المستعمرات فرض قيمهم ورؤيتهم للعالم أو نمط عيشهم³¹. وتبقى الثقافة الغربية تتمتع بالسيادة والهيمنة، وهي التي تؤهل المواطنين للتحدّث باسم الأرض وتمثيل أصحابها الوافدين أو الحقيقيين.

نعود إلى شخصية "جلول" الذي يستخدمه "آندري" ويسيء معاملته باعتباره عبداً عند سيّد. هل كان "جلول" يسيء خدمة السيّد حتى يستحقّ عقاباً وجلداً؟ هل كان يبدي عصياناً أو كسلاً في القيام بما يُكَلَّفُ به؟ يجيب جلول محاوره "جوناك": "لستُ في حاجة إلى أن أخطئ في شيء ما. يجد دائماً أعداءاً ليدوس عليّ. هذه المرّة بسبب غضب المسلمين في الأوراس. آندري مرتابٌ من العرب الآن. بالأمس جاء مخموراً من المدينة وضربني ضرباً مبرحاً"³² إنه العقاب الاستباقي الذي يُرجى منه ترهيب المترددين الذين تحدّثهم أنفسهم بالخروج على طاعة السيّد. كان العقاب الجسدي الذي يسلطُ على العبيد الذين سخرهم الأوروبيون لخدمة مزارعهم وبراريهم في القرون الوسطى وإلى غاية سقوط نظام العبيد في القرن الثامن عشر يهدفُ إلى تطويعهم وقتل كلّ رغبة في التمرد في مرحلتها الجنينية. ولذلك لم يكن العقاب مشروطاً بالخطأ، وإنما كان يستشرفُ رغبة يُراد قمعها. إن أي مقاومة يبديها المستعمرون في أي قرية من قرى الجزائر يمكنها أن تتنازل وتتكاثر حتّى تتحوّل إلى ثورة شاملة، تقلّب الكون الاستعماري رأساً على عقب. كان المستوطنون يتوجّسون من هذه الحالة؛ ذلك أنّ سلوكهم لا يمكنه أن يؤلّد إلاّ غضباً ورفضاً واحتجاجاً.

إنّ المعاناة التي يكابدها المستعمرون ممثّلين في شخصية "جلول" قد استفزّت "جوناك" الذي يشارك قومه الهوية والتاريخ ولكنه لا يعيش قهرهم. اصطحب "جوناك" مرافقه "جلول" الذي جاءه يستعير منه بعض المال إلى بيته خارج (ريو صالادو)، ورأى بعينه البؤس الذي تعيشه عائلة "جلول". كان المشهد مروعا إلى حدّ لا يطاق، ودفعه إلى التفكير في تصحيح وضعه في النظام الكولونيالي. كان يخاطب نفسه قائلاً: "ظننتُ أنّي لمستُ عمق البؤس في (جنان جاتو). كنت مخطئاً؛ إنّ بؤس الدوار الذي تسكنه عائلة "جلول" يتجاوز كلّ الحدود. يحتوي التجمّع السكّاني حوالي عشرة أكواخ قبيحة في عمق واد ناشف تحيطه زرائب بها بعض المعزاة الضامرة. تنبعثُ من المكان رائحة كريهة، بحيثُ لم أصدّق أنّ بإمكان بشر أن يعيشوا فيه ليومين متتاليين. لم أتمكّن من الذهاب بعيداً"³³. كانت الطفولة الأولى لـ "جوناك" قد قضاه في (جنان جاتو). غير أنّ الصورة عن بؤس تلك الأماكن فقدت الكثير من وهجها في ذاكرته، بفعل الرفاهية التي ينعم بها في المدينة الكولونيالية. إنّ تلك الصّورة في حاجة إلى خضّ متكرّر لكي تُبعثَ إلى الحياة وتعيد تشكيل وعي "جوناك" المشوّه بفعل الانحياز للمستعمر.

فحادثة زميله "عبد القادر" في المدرسة، وطرده أبويه من الحانة مهانا، والدعاوي العنصرية التي يرسلها أصحابه الفرنسيون من حين لآخر، كلّ ذلك غير كاف لتحويل "جوناك" من موقعه الطبقي المتميز إلى الجهة المقابلة، حيثُ الأطفال "عراة يلعبون وسط الغبار، بطونهم منتفخة، والمناخير يحاصرها الدّباب، وزيادة على الرائحة العفنة، يوجد طنينُ الدّباب شرها، عنيدا، لا يتوقّف عن تخصيب الجوّ الملوّث بأزيز مشؤوم، كما النفس الشيطاني المحلّق فوق الهلع البشري، قديم قدم

العالم، وتعيّسُ مثل تعاسته³⁴. يدركُ الآنَ جوناكس أنَّ تعاسة قومه هي بسبب رفاهيّة المستعمر، الذي كان يحوّل ثروات البلاد كلّها إلى المركز، وما تبقى يختصّ به المستوطنين الأوروبيّين وحلفاءهم من العرب، وهو محسوبٌ عليهم في أعين الوطنيين، بحكم وضعه الطبقي المتميّز وعلاقته ب(ريو صالادو)، أرقى الأحياء الأوروبيّة. كان "جوناكس" قد بدأ مرحلة مراجعة الذات وأخذ مسافة من القهر الاستعماري الذي يمارسه الفرنسيّون مع الأصلايين. لم يكن في قرارة نفسه مؤيِّداً للوجود الاستعماري، كما أنّ عمّه "ماحي" هو الآخر لم يكن مؤيِّداً للاستعمار، بل كان متعاطفاً مع حركات المقاومة السياسيّة التي كانت البلاد تغلي بها، وعلى الخصوص بعد الحرب العالميّة الثانيّة، وعقب أحداث الثامن من ماي 1945. كان "ماحي" مثقفاً عضويّاً، وقارئاً نهماً، وكاتباً متمرساً، كما كان يلتقي بالمناضلين في الأحزاب السياسيّة الوطنيّة، وكان يدعمُ المجاهدين بالمال والدواء خفية عن أعين الاستعمار، ورغم أن زوجته فرنسيّة، إلّا أنه تمكن من الإفلات عن المخابرات الاستعماريّة. لقد كان "ماحي" هو الحلقة التي تتوسّط عالمين نقيضين، والتي ستُمكنُ "يونس" المدعو "جوناكس" من الالتحاق بثقافة الأسلاف، ومناصرة قضيّة بلده، ومواجهته للخطاب الكولونيالي في أشدّ حالات توهّجه، وقوّة البلاغيّة، وفي الفترات التاريخيّة الأكثر حسماً.

كان المستوطنون من الإقطاعيين الكبار، هم الأكثرُ تضرّراً من الثورة المسلّحة التي تهدفُ إلى اقتلاعهم من الأرض وطردهم إلى المركز، والتخلي عن غنائمهم، التي تحوّلّت إلى ملكيّات خاصّة بحكم التقادم. ولذلك كانت ردود أفعالهم تجاه عمليّات المقاومة بالغة العنف والتشنّج.

لم تصل أولى الأعمال المسلّحة للمقاومة الوطنيّة إلى صالادو، إلّا بعد عامين من اندلاعها على كامل التراب الوطني. وكان أول ضحاياها الإقطاعي الأكثر ثراءً في (ريو صالادو)، "جوزي"، وقد قُتل في فناء بيته بخنجر بينما كان خادمه "جلول" غائبا عن الحراسة. تعلّقت كلّ الشبهات بذلك الخادم البائس، وأدين في محاكمة شكلية. فتدخّل "جوناكس" لدى والد الضحيّة من أجل الدفاع عن براءة "جلول" بدافع الشفقة. أخذه "جيم جيميناز صوزا" إلى تلة تشرفُ على مزارعه الشاسعة، وراح يجادل عن أحقيّة جدوده بهذه الأرض، قائلاً: "عندما آتي إلى هذا المكان لأتأمل كلّ هذا، أفكّرُ في الرّجال الذين كانوا هنا قبلي، منذ زمن بعيد، وأتساءل عمّا كانوا يشاهدون حقّاً؛ أحاول أن أتخيّل هذه المناظر عبر العصور، وأضع نفسي مكان ذلك الرّاعي البربري، والمغامر الفينيقي، والغازي الوندالي، والفاتح المسلم- أي كلّ الرجال الذين قادهم القدر إلى هذه الأرض، وتوقّفوا عند ذروة هذه الهضبة تماماً في المكان الذي أقف فيه الآن (.....)، ماذا كان بإمكانهم أن يروا في مختلف تلك العصور؟ لا شيء، لم يكن هنا شيء سوى مرجة متوحشة تعجّ بالزواحف والجرذان"³⁵. لقد تفجّرت بلاغة الخطاب الكولونيالي بسبب شعور عميق بتهديد وجودي وشيك الحدوث، فبات النظام الكولونيالي برمته موضع تساؤل وتشكيك. واستدعى ذلك تهيّج المخيال

الغربي للحفر في الذاكرة التاريخية الملفقة، وتولدت بفعل ذلك صور بالغة الدلالة عن الخواء التاريخي لأرض الجزائر، الأمر الذي يترتب عنه تساوي الحضارات في أحقيتها في الأرض، ومن ثم، تصبح فرنسا ذات أولوية بفعل حاضرها المشرق ووجودها الفعلي والفاعل والمتجذر بفعل المصالح الامبراطورية. إن تعاقب الأعراق الكثيرة على أرض الجزائر، طيلة تاريخها الطويل ينفي أن يكون عرق ما، أو سلالة دون أخرى، أحق بهذه الأرض من غيرها. إضافة إلى ذلك، فإن كل الذين عبروا تلك الأرض، أو أقاموا فيها، لم يتركوا أثرا بعد عين. لم يخلفوا معلما حضاريا يثبت مرورهم من هنالك، أو ملكيتهم للأرض. لم يتركوا إلا خواء تاريخيا وفراغا ثقافيا يقطع بغياهم المطلق. لقد شكلوا حدثا عارضا في هذه الأرض. كان ألبير كامو يجادل أن كل العراق وكل الثقافات التي تتعايش على هذه الأرض من حقها أن تدعي الحق في الجزائر. ليس العرب وحدهم أحق بالتواجد فوقها. من أجل ذلك كانت فرنسا تكاثر العرب بالمستوطنين، من كل الدول الأوروبية، مقابل امتيازات تمنحها للقادمين الجدد الذين كانوا يقيمون استثمارات على الأرض. إسرائيل أيضا عند استعمارها لأرض فلسطين كانت تروج لأرض بلا شعب وشعب بلا أرض. وعندها مكنت أقدامها على الأرض الموعودة كانت تستقدم اليهود من كل بقاع الأرض، وكانت تشجع بقاءهم مقابل امتيازات اقتصادية واجتماعية، وذلك بغية إحداث التوازن السكاني مع الأصليين.

يتابع الإقطاعي الفرنسي حجاجه البليغ من أجل إقناع (جوناس) بأحقية الفرنسيين في أرضهم، ويعود إلى الحفر في الذاكرة القريبة: "عندما اختار أحد أجدادي أن يستقر في هذا المكان الخالي كان متأكدا أنه سيموت قبل أن يخرج منه أي نفع. عندي بعض الصور في البيت، لم يكن هناك كوخ على بعد أميال من هنا، لا شجرة، ولا هيكل بهيمة جمده الانجراف... ومع ذلك، لم يواصل جدي سيره بحثا عن أماكن أكثر رحمة، بل شمر على ذراعيه، وصنع بأصابعه العشرة الأدوات التي كان يحتاج إليها للحرق والزرع والبذر ونقش وحفر هذه الأرض بيديه إلى حد صعب عليه استخدامها في قطع رغيف خبز"³⁶. كان (جيم جيميناز صوزا) يعتمد انتقاء مفرداته الأكثر انغماسا في الذاكرة التاريخية لأسلافه الذين خدموا هذه الأرض بإخلاص أسطوري، وأحيوها بعد أن تركها الهمج مستنقعات وحفرا ووديانا للجرذان والسباع المتوحشة. تكررت مفردة الجد أكثر من مرة، وأكد صوزا على خلاء أرض الجزائر من أي شكل من أشكال الحضارة قبل أن يعبرها العرق الأوروبي الفاضل ويصنع من صخورها حضارة علمية تحاكي المركز بل وتفوقه خيرات. إن الذي فعلته فرنسا في الجزائر يحيلنا إلى ما فعله (روبنسون كروزوي في الجزيرة المعزولة والخالية من البشر. لم يكن يملك إلا أدوات بدائية وعقله العبقري. وانطلاقا من ذلك تمكن من بناء حضارة "تستوفي شروط النهضة.

تأتي لغة الانتماء القومي مشحونة بضروب الدّفاع عن الأسلاف ذات المغزى الأخلاقي، الأمر الذي حدا بـ(بينديكت أندرسون) إلى التساؤل: لماذا تحتفي الأمم بشبيها لا بشبابها³⁷. الأجداد هم الذين عبروا هذه الأرض المعطاء بأنفسهم، فلم تعد كما كانت، طبيعة متوحشة، والأجداد هم مصدر النبالة ومنبع القيم الحضارية التي صنعت فخار العرق الأوروبي وفخره وتفوقه السّاحق على الأعراق الملونة، ولقد وثّقوا عبورهم هذه الأرض، و(صوزي) يملك صورا عن جدّه ويحاجج بها هؤلاء الذين يشكّون في الرواية الكولونيالية التي تتحدّث عن العرب باعتبار غياهم. "لم يكن هنالك كوخ على بعد أميال، ولا هيكل بهيمة جمّده الانجراف". كان هناك خواء وفراغ وعدم، حوّله الوجود الفرنسي إلى مدن جميلة وجسور فوق مجاري المياه، وكهرباء، وحداثة، وجنات عدن وسكك حديدية ومعالم حضارية جميلة³⁸. إن هذا البلد مدين لمن صنعه بسواعده، هذه هي الرسالة المشفرة التي يمررها الخطاب الكولونيالي عبر ممثليه. "إنّ هذه الأرض تتعرفُ على أصحابها، نحن هم أصحابها الذين خدمناها مثلما نخدمُ أمّهاتنا، إنّها سخيّة معنا لأنّها تدركُ بأننا نحيا، إنّ الخمر الذي تمنحه لنا تشربه معنا، استرق السّمع إلها، ستقول لك أنّنا نساوي كلّ شبر من حقولنا وكلّ فاكهة من أشجارنا"³⁹. إنّ رهاب المقاومة الذي كان يستبدّ بالوعي الكولونيالي يدفع بالمعمّرين إلى تبني خطاب عاطفي من شأنه أن يعمّق الوجود الفرنسي في المستعمرة، ويعزّز هويّتها الغربية المفترضة، إن الخطاب العاطفي الذي يحاجج به (صوزي) يسعى إلى تغييب التاريخ العربي والإسلامي من الذاكرة المحليّة من خلال إقناع (جوناس) بالرواية الفرنسيّة، وجره إلى منطقة الكولونيالية المحروسة والمعزّزة بكلّ أسباب القوّة الماديّة، غير أن الوعي الناشئ للشّباب (جوناس) الذي يعيش في المنطقة الحدوديّة، بين طرفي شعبين عدوين، يبدأ في البزوغ من رحم الشقاء الذي غيّب والده، وشرّد والدته وإخوته، ملوّحا برواية مضادّة تقوِّض رواية المستعمر، لقد استعاد خياله -وهو ينصّت لـ(صوزي)- صورة التلميذ عبد القادر الذي يهان لكونه عربيا كسولا، كما استحضّر كلّ الشقاء الذي يسحق (جنان جاتو)، والخادم جلّول، وكالابن العاق لفرنسا يواجه خصمه بكلّ عبقرية المعذّبين في الأرض، "منذ زمن طويل، السيّد (صوزا)، قبلك وقبل جدك الذي تتحدّث عنه، كان رجلاً يقف في المكان الذي تتواجد فيه، عندما يرفع عينيه على هذا السّهل، لا يتوانى عن رؤية نفسه مالكا لها، لم تكن هناك طرق معبّدة ولا سكك حديدية.....)، كان هذا الرجل مطمئنا، واثقا من نفسه، لأنه كان حرّاً طليقا.....)، إن هذه الأرض ليست ملكا لكم، إنّها ملك الراعي الذي عاش هنا في الأزمنة الغابرة"⁴⁰. يلجأ (جوناس) إلى نفس التاريخ الذي يلجأ إليه خصمه المستوطن. إنه يقوِّض بنية العقل الكولونيالي من الدّاخل، لأنّها تحمل بذور فنائها في تناقضاتها وتلفيقاتها الخفيّة، وحججها الواهية، ينتقي (صوزي) من التاريخ ما يوافق فرضيّاته، مع ليّ ذراع الحقائق، وتلفيق الوقائع لتتناسب مع المنطق الكولونيالي الذي ينكر حقّ الشّعوب في امتلاك

مصريها وتمثيل نفسها، إن نظرة المعمّر والإقطاعي الفرنسي لا تذهب أبعد من التاريخ الحديث، تاريخ استعمارها للجزائر. وعلى أساسه يتشكّل منطق الاستحواذ والإلحاق بالقوة، وبسياسة الأمر الواقع. فالمرافق الحضارية التي أنشأتها فرنسا، والأراضي التي نهبتها من أصحابها وأسندتها للأوروبيين، وكل منجزات الحداثة التي تضارع ما هو منشأ في المركز، كلّ ذلك يخولها امتلاك الأرض بأي شكل من الأشكال، ويُعدّ هذا الجدل مستفزاً للشّاب الجزائري (جوناس)، فيُنطّقه وعيه المتحفّز بما يبدو أنه انتصارٌ للذّات المستلبة. "بما أنكم لا تعرفون الاقتسام، خذوا بسايتنكم وجسوركم وأسفلتكم وسككم الحديدية ومدنكم وحدائقكم وأرجعوا الباقي إلى ملاّكه الشرعيين"⁴¹. بعبارة أخرى يتعيّن على الفرنسيين أن يأخذوا معهم حداثتهم التي يدّعون أنهم يهبونها للأهالي، ويغيّرون بها وجه البلاد ليغدو مشرقاً، ويعودوا بها من حيث أتوا ويعيدوا الأرض لأصحابها الحقيقيين.

لقد سعت فرنسا منذ حلولها بالبلاد في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، إلى تغيير معالم الأرض، فأنشأت مدناً على النمط الغربي، وزرعت أسواقاً وشوارع ومرافق عامّة وحقولاً وبساتين، كلّ ذلك من أجل أهداف مزدوجة، إنّ تغيير معالم الجغرافيا يُغيّب هويّة الشعب قبل الاحتلال، ويمحو الذاكرة التاريخية للأرض وسكانها الحقيقيين، بالإضافة إلى كونه يشعر الغربيين أنهم في بلدهم، إنهم يقيمون فضاءات مسيّجة ويحيطونها بكل أشكال الرفاهيّة والعيش الكريم، وينصبون حدوداً تفصل بين فضائهم وفضاء الآخرين، ثم يسمّون الكلّ أرض(نا)، ويدفعون بالهمجيين على الأحرار والوديان المعزولة كي لا يسمّموا هدوءهم ولا ينازعوهم خماراتهم. من أجل ذلك يقول (جوناس) لمحاوره: خذوا حداثتكم وعودوا من حيث أتيتم، فالأرض ملك الراعي الذي تواجد في الزمن الغابر على هذه الأرض، وأن الوجود الفرنسي هو الوجود العارض والطارئ والناشز.

لقد تغيّر (جوناس) بعد حوارهِ مع (صوزي) تغيّراً جذرياً، وبدأ انحيازهُ لقومه ولمعانة بلده يطفو على السطح. لقد بدأت عزلته الوجوديّة تشطر وعيه من الداخل لما تنكّر له بعض أصدقائه الفرنسيين، وتنكّرت له (إيليزابت) بدعوى أنه عربي، فأصبح منساقاً باتجاه الأحياء المسلمة في وهران، فيجد نفسه في المقاهي العربيّة، ينصتُ إلى حكاياتهم ويلتقط أخبار الثورة وكأنه يكتشفها على حقيقتها: "كانوا أكثر اطلاعاً مني، أنا المتعلّم، الصّبيّلي، طفقتُ احفظ أسماء غريبة عني، والتي ترنّ في أفواه أهلي مثل أذان الصّلاة: بن مهيدي، زابانا، بوضياف، عبّان رمضان، حمو بوتليليس، الصّومام، الونشريس، جبلا لوح، علي لابوانت"⁴². لم تتعوّد أذناه على سماع أسماء عربية بعينها في المدينة الكولونيلية. فالآخرون هم عربٌ وكفى؛ هم كائنات مقيّضة لخدمة الوجود الغربي، على شاكلة (جلول). أمّا نساء العرب فهنّ خادّمات لدى السيّد مقابل لقمة عيش زهيدة، لا يؤبه لوجود

العربي في (ريو صالادو)، فهم على قلّتهم لا يتواجدون إلا في حقول ومزارع الإقطاعيين، أو في الاصطبلات في خدمة الماشية.

أما الأسماء التي تصنع تاريخاً موازياً، ومخالفاً للسردية الكولونيالية، فهي في الجانب المقابل لعالم القوة. إنه مارقٌ للتوّ من رحم المعاناة والفقر والبؤس والشقاء، فثمة يسمع (جوناس) أسماء مندسة بعمق في تاريخ المقاومة والصراع المير من أجل البقاء على قيد الحياة، وبكثير من الكرامة والجدارة الإنسانية. هنالك معايير أخرى وقيم ومفاهيم لا علاقة لها بالحدثة الخائبة، ولا بالغرب المتعالي. أسماء تثير الرعب في نفوس المستوطنين، وتبعث الشكّ في نفوسهم، لم تعد ألهمتهم تثير خوف العرب، ولم تعد قادرة على جلب الحماية وتوفير السكنية. لقد سبق وأن تعرّف (جوناس) على جدّته (لالا فاطمة نسومر) ولكنه تعرف عليها صورة معلقة على جدار البيت، خالية من الحياة، منزوعة المهابة، قد تمّ تحييدها وعزلها عن مسار التاريخ الخطّي. أما الأسماء التي التقطها سمعه في الأحياء العربية، فهي قنابل متحركة، تهدّد بالانفجار في كلّ حين، وتقتل عدوها كلّ يوم، وبأشكال متنوعة. إنها خطاب الرفض الذي بُعث إلى الحياة من أجل مغالبة المركزية الغربية وقهر الاستبداد الكولونيالي، من أجل الاسترجاع القدرة على تمثيل الذات وحكم الذات، بعد أن سُلِبَتْ منه لأجيال عديدة.

الخاتمة:

كان الاستعمار الغربي الحديث أسوأ حادث على الإطلاق تعرضت له البشرية بدءاً من القرن الثامن عشر، والذي لا تزال بقاياه إلى يومنا هذا، جاثمة على الجسد العربي، في فلسطين. ولقد كان هذا الامتداد خارج حدود أوروبا مرفوقاً بسردية ضخمة ضخامة المشروع الامبريالي تسنده، وتدعمه على نطاق واسع. لقد كان الغرب في حاجة إلى مسوغ تاريخي وأخلاقي وإنساني لاحتلال مساحات شاسعة خارج فضائه الحسير، والتمس هذه المسوغات في السرد الروائي على الخصوص. فكانت الرواية ترافق الوجود الغربي حيثما حلّ، وتحاول أن تمرر المشروع الكولونيالي باعتباره ضرورة تاريخية من أجل تحديث الكرة الأرضية وإخراج كل شعوبها من محنة التخلف إلى نعمة الحدثة الغربية المتفوقة بفضل العلم والمعرفة العقلية ونبذ الفكر القروسطي.

وعلى خلفية ذلك نشأ الخطاب الكولونيالي عبر السرد الروائي والرحلي، وعبر أبحاث الاستشراق والانثروبولوجيا، ومن مهامه تبييض وجه الاستعمار وتحقيق الهيمنة على مستوى العقول من أجل قبول الذوبان في الثقافة الغربية، والتخلي عن ثقافة الذات. غير أن خطاباً مضاداً رافقه من أجل تقويضه، وتعرية زيفه الإيديولوجي، فقد تبين للشعوب المستعمرة، أن ليلها في ظلّ الاستعمار بات طويلاً، وأن معاناتها أبدية ما دام الاستعمار حاضراً، وماثلاً. فكان من الطبيعي أن تنشأ مقاومة مسلّحة، مدعومة بمقاومة ثقافية تشتغل بنفس أدوات الإقناع التي يستفيد منها الغرب في

التسويق لمشاريعه، من هنا نشأت الرواية ما بعد الكولونياتية التي تقارع الخطاب الكولونيالي وتبطلُ سحره، إن صحَّ أن يكون له سحر. وتندرج رواية "فضل الليل على النهار" لياسمينه خضرا في هذا الإطار. وعليها اشتغلنا لمعارضة الرواية الغربية المرافقة للاستعمار.

قائمة المصادر والمراجع:

- ¹ -بيل أشكروفت، جارت جريفيث، وهيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونياتية/المفاهيم الرئيسية، ترجمة أحمد الربيع وأيمن حلمي، وعاطف عثمان، تقديم كرمه سامي، المركز القومي للترجمة، 2010، القاهرة-مصر.
- ² -آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط الأولى 2007..
- ³ -مايكل هارث وأنطونيو نيغري، الامبراطورية، ترجمة فاضل جتكر، مكتبة العبيكان-الرياض 2002..
- ⁴ -سعید إدوارد، تعقبات على الاستشراق، ترجمة صبيح حديد، المركز العربي للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط الأولى 1996.
- ⁵ -سعید إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب بيروت-لبنان، ط الأولى 1981.
- ⁶ -غوستاف لوبون، السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط أولى 2012. ⁷ -جيل دولوز، وفيليكس غاتاري، ما الفلسفة، ترجمة مطاع صفدي، المركز الثقافي العربي، ط الأولى 1997. ص 110.
- ⁸ -تزييتان تودوروف، روح الأنوار، ترجمة حافظ قويعه، طبعة مشتركة بين دار محمد علي (تونس) ودار توبقال (المغرب) والانتشار العربي (لبنان)، ط أولى 2007.
- ⁹ -عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، ط الأولى 1977.
- ¹⁰ -ياسمينه خضرا، فضل الليل على النهار، ترجمة محمد ساري، مطبعة موقان، ديسمبر 2013.
- ¹¹ -سعید إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت-لبنان، ط السابعة 2005..
- ¹² -تزييتان تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربي حمود، دار المدى، سوريا.
- ¹³ -آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط الأولى 2007، 177.
- ¹⁴ -مايكل هارث وأنطونيو نيغري تعريب فاضل جتكر، مراجعة رضوان السيد، الناشر لعبيكان-الرياض، 2002..
- ¹⁵ -هومي، ك. بابا، موقع الثقافة، ترجمة نادر ديب، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، ط الأولى 2006..

الهوامش

- ¹ -بيل أشكروفت، جارت جريفيث، وهيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونياتية/المفاهيم الرئيسية، ترجمة أحمد الربيع وأيمن حلمي، وعاطف عثمان، تقديم كرمه سامي، المركز القومي للترجمة، 2010، القاهرة-مصر، ص 105.
- ² -المرجع نفسه، ص 106.
- ³ -آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط الأولى 2007، ص 17.
- ⁴ -بيل أشكروفت، جارت جريفيث، وهيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونياتية، ص 106.
- ⁵ -آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ص 18.
- ⁶ -المرجع نفسه، ص 20.

- 7- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- 8- أنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، 27.
- 9- أنيا لومبا، نظرية الاستعمار الأدبية وما بعد الأدبية، ص 34-35.
- 10- مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، الامبراطورية، ترجمة فاضل جتكر، مكتبة العبيكان-الرياض 2002، ص 186.
- 11- المرجع نفسه، ص
- 12- سعيد إدوارد، تعقيدات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديد، المركز العربي للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط الأولى 1996، ص 18.
- 13- المرجع نفسه، ص 188.
- 14- سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب بيروت-لبنان، ط الأولى 1981، ص
- 15- غوستاف لوبون، السنن النفسانية لتطور الأمم، ترجمة عادل زعير، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط أولى 2012، ص 46-47.
- 16- مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، الامبراطورية، ص 284.
- 17- جيل دولوز، وفيليكس غاتاري، ما الفلسفة، ترجمة مطاع صفدي، المركز الثقافي العربي، ط الأولى 1997، ص 110.
- 18- تزفيتان تودوروف، روح الأنوار، ترجمة حافظ قويعة، طبعة مشتركة بين دار محمد علي (تونس) ودار توبقال (المغرب) والانتشار العربي (لبنان)، ط أولى 2007.
- 19- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، ط الأولى 1977، ص 18.
- 20- المرجع نفسه، ص 33.
- 21- بيل أشكروفت، دراسات ما بعد الكولونيالية، ص 101.
- 22- ياسمين خضرا، فضل الليل على النهار، ترجمة محمد ساري، مطبعة موقان، ديسمبر 2013، ص 33.
- 23- المصدر نفسه، ص 158-159.
- 24- المصدر نفسه، ص 117-118.
- 25- سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت-لبنان، ط السابعة 2005، ص 77.
- 26- فضل الليل على النهار، 167.
- 27- المصدر نفسه، ص 121.
- 28- تزفيتان تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربي حمود، دار المدى، سوريا، ص 279.
- 29- أنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط الأولى 2007، ص 177.
- 30- فضل الليل على النهار، ص 188-189.
- 31- مايكل هاردت وأنطونيو نيغري تعريب فاضل جتكر، مراجعة رضوان السيد، الناشر لعبيكان-الرياض، 2002، ص 193.

-
- 32 - فضل الليل على النهار، ص 243.
- 33 - المصدر نفسه ، ص 246.
- 34 - المصدر نفسه ، ص 247.
- 35 - المصدر نفسه ، ص 398.
- 36 - المصدر نفسه ، ص 398-399.
- 37 - هموي، ك. بابا، موقع الثقافة، ترجمة ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، ط الأولى 2006، ص 113.
- 38 - انظر الرواية، ص 400.
- 39 - فضل الليل على النهار، ص 400.
- 40 - المصدر نفسه ، ص 402-403.
- 41 - المصدر نفسه ، 403.
- 42 - المصدر نفسه ، ص 413.